اللغة العربية ومشاكل تدريسها في ربوع الهند

أ. د. محمد أسلم الإصلاحي*

اللغة العربية لها تاريخ مشرق في شبه القارة الهندية منذ دخولها في هذه المنطقة. في البداية كان لها الاتصال بالسواحل الغربية في جنوب الهند وذلك لأن التجار العرب كانوا يمخرون بحيرة العرب ويترددون على هذه السواحل لنشاطاتهم التجارية فكانوا يشترون الانتاجات والسلع المحلية وخاصة البهارات والتوابل لبيعها اولا في البلدان العربية ثم نقلها إلى الدول الغربية التي كانت تولع بالتوابل الهندية. يذهب بعض المصادر التاريخية بنا إلى أن عديداً من الأسر العربية قد توطنت بالمناطق السواحلية الغربية للهند وجعلت الهند مستقراً لها. يقول صاحب سبحة المرجان عمن يسكنون في المناطق المعروفة بـ "كوكن" الكائن بسواحل الهند الغربية "إنهم طائفة من قريش خرجوا من المدينة المنورة خوفاً من الحجاج بن يوسف وبلغوا سواحل بحر الهند وسكنوا به".[1] ولا تزال أفراد هذه الطائفة والأسر العربية الأخرى موجودة على سواحل جنوب الهند ولتائيد هذا القول يمكن لنا أن ننقل ما كتبه الشيخ عبد المنعم النمر أثناء رحلته إلى منطقة مليبار في نوفمبر 1957 فهو يقول: ونحن لانزال نرى للآن أثر العرب في مليبار متمثلا في بعض الأسر العربية الأصل وفي عناية هذه البلاد أكثر من غيرها من بلاد الهند باللغة العربية كما شاهدت ذلك حين رحلتي إليها.[2] وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن محمد بن قاسم الثقفي في حين اقتحم الثغور الغربية للهند في 92 هـ 711م رافعا لواء الإسلام واصبحت ملتان ومايجاورها من المناطق تحت سيطرته وتصرفه اختار كثير من العرب هذه المناطق كموطن لهم. فبوجودهم في هذه المناطق نالت اللغة العربية رواجاً وقبولاً. فكان الناس يستخدمونها لأحاديثهم اليومية يقول الاصطخري صاحب المسالك والممالك في هذا الخصوص : ولسان أهل المنصورة وملتان ونواحيها العربية والسندية.[3]

---

*- عميد كلية دراسات اللغات والآداب والثقافات، جامعة جواهر لال نهرو، دلهي الجديدة -110067 (الهند)

1- سبحة المرجان في آثار هندوستان للعلامة غلام على آزاد البلجرامي ص 97

2- تاريخ الإسلام في الهند للشيخ عبد المنعم النمر ص 640

3- المسالك والممالك للاصطخرى ص 105

ولم تزل اللغة العربية تجذب اهتمام الهنود إليها حتى دخل الإسلام من معبر آخر وهو ممر "خيبر" الجبلي المشهور الكائن على التخوم الباكستانية والأفغانية حاليا. فالذين جاؤا عن طريق هذا الممر اكثريتهم كانت تنطق الفارسية ومن هنا انهم اختاروا الفارسية لنشر تعاليم الدين الحنيف السمحاء وجعلوها لغة رسمية فالناس بدأوا يدرسون هذه اللغة لتنوير عقولهم وتثقيف أذهانهم وللحصول على المناصب والوظائف الحكومية ورغما من هذا كله لم تفقد اللغة العربية مكانتها الدينية وكثير من المسلمين كانوا يدرسونها لأداء واجباتهم الدينية وتدوين أفكارهم العلمية الأدبية واستمرت الظروف على هذه الشاكلة حتى ادلى المستعمرون الأجانب وخاصة الانجليز دلوهم في الهند وبذلوا جهوداً مكثفة لنشر لغتهم وثقافتهم في الأصقاع المختلفة للهند وكانت نتيجة ذلك أن اللغة العربية والفارسية فقدتا بريقهما وأفلت نجومهما وفي هذه الظروف القاتمة قام نخبة من العلماء المسلمين لمقاومة هذا التيار الجارف وأنشأوا الكتاتيب والمدارس والمعاهد التعليمية الأخرى حيث كانت التعاليم الإسلامية بما فيها اللغة العربية تنقل إلى الجيل الجديد من أبناء الإسلام. فبفضل هذه المساعي الكريمة جاء إلى حيز الوجود كثير من المدارس والجامعات الإسلامية ومن أبرزها دار العلوم بديوبند التي تم إنشاؤها بمديرية سهارنفور في 1866 ومدرسة مظاهر العلوم بسهارنفور في 1867م ودار العلوم التابعة لندوة العلماء بلكناؤ التي وضعت لبنتها الأولى عام 1885 ومدرسة الإصلاح سرائمير اعظم جر التي تم تأسيسها 1910 ومثيلات هذه المدراس منتشرة في جميع أنحاء الهند وتقوم بدورهن بإحياء ونشر العلوم الإسلامية ومنها اللغة العربية وآدابها.

وبمقابل هذه المعاهد الدينية ثمة كليات وجامعات عصرية تدرس فيها اللغة العربية وآدابها والاهتمام فيها بالعناصر اللغوية والأدبية للغة العربية. فالفرق بين المعاهد الدينية والأقسام العربية للجامعات والكليات أن الأولى ليس هدفها إلا تدريس العلوم والمعارف الإسلامية التي في الأصل توجد في اللغة العربية ولذا تدرس فيها اللغة العربية كوسيلة لاستيعاب المواد الدينية ويعني ذلك أن اللغة العربية ليست الهدف الرئيسي لهذه المعاهد وأما أقسام العربية للجامعات فليس غرضها إلا تزويد الطلبة بالعلوم والآداب العربية ومن هنا

الفنون والعلوم الإسلامية لاتجد فيها مكانا إلا نادراً و من أشهر الجامعات والكليات التي تدرس فيها اللغة العربية جامعة عليجراه المسلمة وجامعة كولكوتا وجامعة بنارس الهندوسية وجامعة باتانا وفي عاصة البلاد أي مدينة دلهي توجد فيها ثلاث جامعات تدرس فيها مادة اللغة العربية وآدابها. وهذه الجامعات الثلاث معروفة " الجامعة الملية الإسلامية" و"جامعة دلهي" و"جامعة جواهر لال نهرو" والطلبة الذين يدرسون في كل منها ينالون شهادات عليا في اللغة العربية وآدابها ويوهلون أنفسهم للوظائف الحكومية و من هنا نجد فرقا كبيراً بين الشهادات التي تمنحها المدارس الإسلامية والجامعات العصرية ، فالشهادات التي تمنحها المدارس الإسلامية فلا اعتبار لها عند الحكومة بحيث أنها لاتعترفها لأي منصب للمناصب الحكومية فالطالب الذي يقضي عشر سنوات أو أكثر في هذه المدارس للشهادة لايليق بأي وظيفة من الوظائف الحكومية وذلك رغما من أن مستوى خريجي المدارس في اللغة العربية وآدابها أحسن بكثير من مستوى خريجي الجامعات وهذا الأمر يستحق العناية و الاهتمام من قبل أولى الأمر في الحكومة وفيما يتعلق بشهادات الجامعات في اللغة العربية وآدابها فهي معترفة لدى الحكومة وحاملو هذه الشهادات يمكن لهم الحصول على الوظائف الحكومية وذلك بالرغم أن مستواهم العلمي والأدبي - كما أشرت إليه آنفاً- ليس بأرفع من مستوى خريجي المدارس الإسلامية.

أيا كان الأمر فإن كلا من هؤلاء الطلبة يواجهون مشاكل كثيرة في تعلم اللغة العربية وآدابها ومن أكبر هذه المشكلات اعتماد هؤلاء الطلبة على الطرق التقليدية لدراسة اللغة العربية وآدابها فقلما يجد هؤلاء الطلبة بيئة لتطوير وتحسين لغتهم العربية نطقا وكتابة وحتى في فصول دراستها لايجدون في أكثر الأحيان أساتذة يلقون محاضراتهم بهذه اللغة و في الحقيقة أن الأساتذة بأنفسهم ليسوا بقادرين بوجه عام على النطق والكتابة باللغة العربية وذلك لأنهم أيضا لم يجدوا فرصة للاختلاط مع أهل اللغة ولم يتمكنوا من الحصول على المواد التدريسية التي تم إعدادها لتحسين ورفع مستوى النطق والكتابة في اللغة وفي هذا الصدد لابد من أن نعرف أن الدارسين في المدارس الإسلامية همهم الأكبر هو الحفاظ على التراث الإسلامي في الهند

وتبليغ رسالة الإسلام إلى المواطنين الهنود بلغتهم ولسانهم ولذا إن كانوا ضعفاء في نطق اللغة العربية فلا أهمية لها عندهم إلى حد كبيروذلك لأنهم أقوياء في عديد من اللغات المحلية فهم قادرون على تحقيق أهدافهم الرئيسية وهي كما أشرت إليه آنفا تتلخص في تعريف الهنود بالتعاليم الإسلامية والحفاظ على التراث الإسلامي في الهند فهم يودون واجباتهم الدينية بمنتهى الكفاءة والاقتدار. فهم في الحقيقة لايزالون يرفعون ويرفرفون رأية الإسلام في الأقاليم المختلفة للهند وبفضل جهودهم المخلصة المتفانية لاتزال اللغة العربية وآدابها باقية في هذا البقعة من الأرض. فكثير منهم يمتلكون ناصية هذه اللغة نطقا وكتابة ولهم آثار رفيعة المستوى في العربية كفانا في هذا الصدد الإشارة إلى الكتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" للعلامة الكبير والداعية الشهير الشيخ أبو الحسن على الندوي المغفور له (1914-1999) وفي هذا السياق من المستحسن أن أذكر هنا أن عدداً ملحوظاً من خريجي المدارس في هذه الأيام يكتبون باللغة العربية المقالات والكتب والأبحاث كما أنهم يتحدثون في هذه اللغة بمنتهى الطلاقة والتفاصيل عن هذا الأمر تحتاج مقالا آخر.

خريجو الجامعات العصرية هم الآخرون يمتازون في تأليف الكتب وكتابة الأبحاث باللغة العربية ولهم دور متميز في تنمية وتقوية جذور اللغة العربية في ربوع الهند وبما أن هدفهم الرئيسي هو اللغة العربية وآدابها فأكثر مؤلفاتهم وأبحاثهم تتضمن موضوعات أدبية وشعرية ونقدية. هذه الموضوعات تنم بوجه عام عن أن معلوماتهم عن الآداب العربية وخاصة الأدب العربي الحديث واسعة فهم يتعرفون بالتيارات الأدبية الحديثة للأدب العربي ويقفون على المراحل المختلفة التي مرت الفنون الأدبية للغة العربية في عصرنا الحاضر ودائرة معلوماتهم ليست محصورة في الأدب العربي القديم كما هو الحال مع خريجي المدارس الدينية فالحاصلون على الشهادات من الجامعات العصرية يعرفون جيداً أن العرب في عصرنا هذا يكتبون المسرحيات والروايات والأقاصيص وما إلى ذلك ومن الطريف أن نشير هنا إلى أن خريجي المدارس الدينية إذا سألهم أحد عن الأدب الحديث فهم لا يزالون يقولون أن الأدب الحديث يعني الأدب الذي

جاء في الأحاديث النبوية هذا التقصير يدلف بنا إلى القول أن المقررات الدراسية في المدارس الدينية أكثر احتياجا للإصلاح والتعديل ومن الضروري إدخال الأدب العربي الحديث فيها وذلك لكي يتعرف طلبتها على كل ما يحدث على ساحة الدول العربية من التطورات والتحولات والتحركات في الأدب والسياسة والاقتصاد وما إلى ذلك. وقد حان الوقت أن نقوم بسد هذا الفراغ الفادح ولا يمكن تحقيق هذا الهدف إلا بالتعاون مع المؤسسات العلمية والأدبية الموجودة في البلاد العربية والتي تستهدف نشر اللغة العربية وآدابها في أقاصى الأرض وأدانيها. ولا يعني ذلك أن الدارسين في الجامعات العصرية لا يحتاجون إلى مثل هذا التعاون فهم أيضا يستحقون العناية والاهتمام من قبل المؤسسات الآنفة الذكر. وذلك لأنهم يلتحقون بأقسام اللغة العربية وآدابها في الجامعات لا لدراسة العلوم الإسلامية بل لدراسة اللغة العربية وفنونها المختلفة وبكلمة أخرى أن شغلهم الشاغل بعد الالتحاق بالجامعات هو دراسة الآداب العربية قديما وحديثاً ونطقا وكتابة.

أما الأدب العربي القديم فهو يدرس في المدارس الدينية والكتب حول هذا الموضوع متوفرة في الهند إلى حد كبير وفيما يتعلق بالأدب العربي الحديث لا توجد في الهند الكتب المشتملة عليه إلا قليلا. ومن هنا نلاحظ أن أكثر طلبة الجامعات حتى أساتذتهم ليسوا بواقفين على أحدث الانتاجات الأدبية العربية. فهم في معظم الأحوال يعتمدون على المؤلفات المكتوبة باللغة الانجليزية عن الآداب العربية الحديثة وذلك لأنها متوفرة وسهلة الحصول عليها في الهند أو الكتب التي تم نشرها قبل الثمانينات للقرن المنصرم. فليتفكر في هذا الجانب كل من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولحل هذه المشكلة يكون من المستحسن أن تكون هناك مذكرات التفاهم بين الجامعات الهندية التي تدرس فيها اللغة العربية وآدابها والمؤسسات والمجامع العربية التي همها الأكبر هو نشر اللغة العربية وآدابها والتي ترفع من حين لآخر الصوت: العربية للجميع. بصفتي عميداً لكلية اللغات والآداب والثقافات بجامعة جواهر لال نهرو ألاحظ أن الأقسام التي تدرس اللغات الأجنبية في جامعتي ما عدا مركز الدراسات العربية والأفريقية تحظى بعناية خاصة من الحكومات التي تنطق فيها هذه اللغات. وهناك عديد من الحوافز والمبادرات والمذكرات التي تشجع طلاب هذه اللغات على

تكثيف جهودهم الدراسية ومن هذه المساعي والمحاولات نستنتج أن الحكومات الأجنبية ما عدا الدول العربية تدرك أهمية لغاتها وثقافاتها فهي تبذل ما في وسعتها من الموارد والإمكانات لنشر لغاتها وثقافتها. وفي الحقيقة قد أصبحت في هذا الزمن مثل هذه التحركات والمحاولات نوعا من الجهاد أو الحرب التي تسخر فيها القلوب والأذهان. وكل منا يعرف انه إذا تم فتح العقول والأذهان لم تبق إلا الأجساد والأبدان التي أوضح حقيقتها شاعر عاش قبل الإسلام ألا هو زهير بن أبي سلمى قائلاً:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ولم يبق إلا صورة اللحم والدم

هذه الحرب التي أشرنا إليها آنفا لا تستخدم فيها الأسلحة أو المتفجرات بل تستعمل فيها المواد العقلية والذهنية. ومن هنا يمكن لنا أن نطلق عليها كلمة "War of wits" أي حرب العقول. وللانتصار في هذه الحرب يجب علينا توفير الوسائل التعليمية والتدريسية التي عن طريقها تستغلظ وتتقوى جذور العقل والذكاء. وبقدر ما تتوفر هذه الوسائل تزداد إمكانيات الفوز والانتصار في هذه الحرب الدائرة في عصرنا هذا بين جميع الشعوب والأقوام. فنظراً لهذه الحقيقة نستدعي المجامع والمؤسسات العربية أن تركز عنايتها على هذا الجانب وتتفكر في استخدام الوسائل والأدوات التي تغلب بها الأقوام على الشعوب الأخرى. ومن أهم هذه الأدوات اللغة لأن الإنسان عن طريقها يمكن أن يمتلك نواصي الآخرين وينفذ ويتسرب في قلوب الناس وأذهانهم. ومن الحقيقة أن من تثقف بثقافة قوم أصبح منهم ففي هذا السياق يحب على المسؤولين العرب أن يدركوا أهمية سلاح العلم والمعرفة ويصرفوا قدراً ملحوظاً لمواردهم المالية على تمتين جذور لغتهم أولا في بلادهم وثانيا في البلدان الأخرى التي لا تنطق فيها اللغة العربية مثل الهند وماليسيا والصين واليابان وغيرها من اللبلدان والأقاليم.

وفي هذا الخصوص أولى لهم أن يستهلوا رحلتهم بالمناطق المجاورة لهم اتباعاً للقاعدة الشرعية "الأقرب فالأقرب" وهكذا بدأت رحلة الإسلام والمسلمين في العالم في القرون الماضية وفي هذا السبيل لابد

لنا من أن نعرف الطرق والوسائل التي ينبغي استخدامها لتحقيق الأهداف المرجوءة وفيما يلي أود أن آتي بذكر بعض الوسائل والخطوات التي يمكن اتخاذها لنيل الغاية المنشودة وهي:

1- إنشاء فروع المجامع العربية في المدن والأمصار الكبيرة لبلاد الهند.
2- فتح مكاتب دور النشر والطباعة العربية والشهيرة في أكثر المدن الهندية وإن كانت الخسارة المالية في بداية هذه المبادرة وقد تتحمل مصاريف أوخسائر هذه المكاتب الفروع الأخرى للمطابع التي تربح تجارتها في البلاد العربية.
3- عقد ندوات علمية وأدبية من حين لآخر تدور موضوعاتها حول الجوانب المختلفة للغة العربية وآدابها وتوفير الوسائل المادية لإنجاح هذه الفعاليات والمناشط.
4- تخصيص موارد مالية لزيارة ودراسة ميدانية للطلبة الذين يدرسون اللغة العربية وآدابها في البلدان غير العربية.
5- ابتعاث الأساتذة الزائرين من العرب إلى الجامعات والمعاهد الأخرى التي تدرس فيها اللغة العربية وآدابها ويطلب منهم خلق بيئة صالحة لنشر لغتهم في البلد الذي يعملون فيه.
6- الاهتمام بتدريب معلمي وأساتذة اللغة العربية العاملين في بلدان غير عربية على طرق تدريسها بكفاءة وجدارة وهذا أمر ضروري وذلك لأن هؤلاء الأساتذة لوكانوا بأنفسهم ضعفاء في اللغة فكيف يمكن لهم تدريسها بالكفاءة والاقتدار.
7- إنشاء مختبرات لغوية لتدريس اللغة العربية في بلدان غير عربية وذلك لأن استخدام هذه المختبرات يساعد الطلبة في نطق كلمات وجمل عربية بلهجة سليمة ومن الملاحظ في هذا الصدد أن الطلبة يعرفون الكلمة ويصوغون الجملة إلا أنهم يخطأون في نطقها ومن هنا يتلكأون في التحدث بالعربية مخافة من أن يجعلهم شخص عرضة للاستهزاء والسخرية.

8- تـوفير الصـحف والجرائـد والمجـلات العربيـة لطلبـة العربيـة وذلـك لكـي يتعرفـوا علـى أحـدث المصطلحات والكلمات العربية التي تستخدم مقابل كلمات أجنبية وخاصة إنجليزية.

9- توفير المنح والمساعدات المالية الأخرى للطلبة الهنود الراغبين في تقوية لغتهم العربية بتسجيل أسمائهم في الجامعات والكليات العربية.

10- إيجاد السبل والوسائل لنقل العلوم الإسلامية والعربية إلى اللغات المحلية الهندية وبالعكس وبهذا الطريق يمكن فتح باب جديد لتوسيع وتمديد الثقافة العربية إلى المناطق التي لا تحظى فيها اللغة العربية بمكانة رسمية.

النقاط العشر المذكورة أعلاه تتطلب من كافة المحبين والمولعين بالعربية اعتناء خاصا وبصفتنا مسلمين يجب علينا أن نتخذ كافة الوسائل والطرق لجعل اللغة العربية لغة دولية مشتركة بين كافة المسلمين المنتشرين في أكثر أصقاع العالم والجهود المبذولة في هذا السبيل في الحقيقة نوع من الجهاد الذي اخطر وافتك سلاحه اللسان الذي يسخر القلوب والأذهان قبل تسخيره الأبدان وهكذا تفعل أكثرية الدول المتقدمة وتبذل كل غال وثمين في سبيل نشر لغتها وثقافتها ومن هنا نلاحظ أن لبعض الدول المتقدمة مؤسسات ثقافية وجمعيات أدبية في عاصمة بلادي أي مدينة دلهي وهذه المؤسسات تعتني اعتناء كبيراً بتوفير المنح والحوافز الأخرى التي تجذب اهتمام الطلبة الهنود إلى دراسة لغتها وثقافتها وتستعد دوما لتمويل مشاريع ومبادرات تستهدف نقل آدابها وعلومها إلى لغات الهند المختلفة. عملية النقل والترجمة هذه تعزز وتمتن العلاقات الثقافية الأدبية والسياسية بين الهند ودول هذه المؤسسات. وفي هذا الصدد لابد مع الأسف الشديد من الإشارة إلى أن الدول العربية كلها متقاعة ومتخلفة في هذا المضمار ولا يوجد لها أي تمثيل لغوي وأدبي وثقافي في بلدنا وإن دل هذا الأمر على شئ فإنما يدل على أن إخواننا العرب ليسوا راغبين أو غير مدركين أهمية الأدب والثقافة في رقي وتطور الأقوام

والشعوب وقوتها ومجدها الأصيل وفي هذا الخصوص يجدر بي أن انقل هنا ما قاله شاعر الشعب حافظ إبراهيم مبرزاً أهمية اللغات وآدابها فهو يقول:

أرى لرجال الغرب عزاً ومنعة وكم عز أقوام بعز لغات

ورغما من هذا كله فإن هناك إمكانيات كثيرة لاتزال موجودة لتوسيع نطاق اللغة العربية في العالم بأسره ومنها الشبكات الفضائية التي تستخدم اللغة الفصحى لبرامجها المختلفة وحسب الاحصائيات الراهنة 500 فضائية تقدم الأنباء والمواد الإعلامية الأخرى ومنها الثقافية والأدبية والشعرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية بالعربية الفصحى وهذه الظاهرة ستفتح بمشيئة آفاقا جديدة لأعطاء اللغة العربية شهرة واسعة دائمة.